


المرجعية الثقافية القرآنية في شعر أبي تمام

د. غالية الطاهر سالم حبلوص

المؤلف <https://orcid.org/0009-0008-0788-5426> 

قسم اللغة العربية. كلية التربية قصر بن غشير. جامعة طرابلس. ليبيا

galia.hablos@gmail.com

The Qur'anic Cultural Reference in the Poetry of Abu Tammam

Dr. Ghaliya al-Tahir Salim Hablus

Department of Arabic Language, Faculty of Education – Qasr bin Ghashir, University of Tripoli, Libya

تاريخ الاستلام: 2026-04-10، تاريخ القبول: 2026-04-25، تاريخ النشر: 2026-06-01.

الملخص:

يحاول هذا البحث أن يبيّن المرجعية الثقافية القرآنية في شعر أبي تمام؛ إذ إنّ أبا تمام فضلاً عن أنّه شاعر كبير، هو فاعل مؤثّر في الثقافة العربية عموماً، وفي شعراء العربية خصوصاً على امتداد القرون التي تلت إلى يومنا هذا، مع علمنا أنّ الثقافة العربية بعمومها اتّسمت بالثقافة اللغوية، وقد تضمّنت التتّف بالقرآن الكريم، والحديث النبويّ الشريف، والشعر، وكلام العرب وأمثالهم، وأيامهم، وحال أبي تمام في التتّف حال أقرانه وأترابه من العلماء والأدباء والشعراء تتقّفوا بتلك الثقافات، لذا جاء هذا البحث ليبيّن تلك المرجعية الثقافية التي وردت في شعر أبي تمام؛ ليكون بعنوان (المرجعية الثقافية القرآنية في شعر أبي تمام) إذ إنّ النّصّ بنية ثقافية تكتنز كثيراً من الأنساق التي تكشف لنا عن تفكير الشاعر في أمته وعاداتها وتقاليدها، وأيدولوجياتها في مختلف المجالات.

الكلمات المفتاحية: المرجعية الثقافية، الثقافة الإسلامية، شعر أبي تمام.

Abstract:

This research attempts to demonstrate the Qur'anic cultural reference in the poetry of Abu Tammam. For Abu Tammam, besides being a great poet, is an influential figure in Arab culture in general, and in Arabic poetry in particular, across the centuries following his time up to the present day. We are aware that Arab culture in its entirety has been characterized by linguistic culture, which included engagement with the Holy Qur'an, the noble Prophetic Hadith, poetry, Arab sayings, proverbs, and historical accounts. Abu Tammam's cultural formation is akin to that of his contemporaries and peers among scholars, men of letters, and poets who were cultivated in these cultures. Hence, this research comes to elucidate that cultural reference present in Abu Tammam's poetry, titled "The Qur'anic Cultural Reference in the Poetry of Abu Tammam." Indeed, the text is a cultural structure containing many patterns that reveal to us the poet's thoughts about his nation, its customs, traditions, and ideologies across various fields.

Keywords: Cultural reference, Islamic culture, poetry of Abu Tammam.

التمهيد:

لا بدّ لنا من إطلاقة يسيرة على مصطلح (المرجعيات الثقافية) ومفهومها، ووقفة وجيزة على دلالاته، والموضوعات التي تندرج تحته، نظراً إلى تعدّد الرّؤى وتضارب المنظرين في تحديد مساراتها، من أجل الولوج إلى صلب البحث، وتحديد متّجهاته.

فنقول: إنّ في موروثنا الثقافي ولا سيّما في الشأن الديني والمعجمي لم نجد شيئاً يدلّ على وجود مفردتي (المرجعية والمرجعيات)، وعليه فهما مفردتان حديثتان لكنّ اللفظ (رجع) ومشتقاته موجود كثيرًا في القرآن الكريم، وبطبيعة الحال هو موجود في معجمات اللّغة، فقد ورد في العين أنّ "المآب: المرجع"⁽¹⁾ (العين: مادة (رجع) 8 / 417) والمرجع مصدر ميميّ، واسم مكان أو زمان بحسب سياق الجملة الوارد فيها، والعرب: "بنوا المصدر على المفعول، كما بنوا المكان عليه... وذلك قولك: المرجع، قال الله عزّ وجلّ: "إلى ربّكم مرجعكم"، أي: رجوعكم"⁽²⁾ (الكتاب: 4/88)، وقد ذكر الجوهري أنّ (المرجع) في الآية المذكورة أنّها بمعنى الرجوع، وأشار إلى أنّ مجيئه على زنة مفعول شاذّ، لأنّ المصادر من فَعَلَ - يَفْعَلُ، إنّما تكون بالفتح⁽³⁾ (ينظر صحاح اللّغة وتاج العربيّة: مادة (رجع) 3/1216). فالمرجعية والمرجعيات اشتقتا من الجذر (رجع)، والمعاني والدلالات تندرج تحت مصطلحهما.

أمّا الكلام بشأن الثقافة فهي السمات المميزة لإحدى مراحل التّقدّم في حضارة من الحضارات، وتلمّس فيها رقيّ العقل والأخلاق، والدّوق السّليم في الأدب والفنون الجميلة، وهي رياضة الملكات البشريّة بحيث تصبح أتمّ نشاطاً واستعداداً للإنجاز⁽⁴⁾ (ينظر معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة: 129). وتعرّف أيضًا بأنّها "الوحدة الكاملة للسلوك المتعلّم الذي ينتقل من جيل إلى الذي يليه... أو هي نمط من التّقليد أو العرف، حيث تنتقل الرّموز من جيل واحد إلى الجيل التّالي"⁽⁵⁾ (معجم مصطلحات الأدب / إنجليزي - فرنسيّ - عربيّ: 45).

ثمّ إنّ الخطاب الأدبيّ ليس نصّاً لغويّاً مجرداً يقوم على عناصر جماليّة ومدلّولات فنيّة مختلفة، بل هو مفهوم ثقافيّ ذو معطى فكريّ، ومرجعية لها طيات تاريخيّة تساعد على فهم دلالات النصّ، لأنّ النصّ الأدبيّ جزء من السياق التاريخي الذي يتفاعل مع مكونات الثقافة الأخرى، وعلى هذا فإنّنا حين نقرأ النصّ بهذه الحيثيّة، فإنّنا نتحصّل على إمكانات النصّ مع تحصيل الإمكانات الإستاتيقيّة (الجماليّة)، وتشكّلاتها الممكنة. ف: "في معظم نظريّات التّحليل الثقافيّ المعاصر، تُعدّ الثقافة رموزاً أو علامات لها معانٍ تحتاج

إلى تفسير، والمعنى يتمّ تكوينه، أو تخليقه عن طريق انتشار الأفعال والأشياء التي تُعدّ علامات تقوم بينها علاقات متبادلة⁽¹⁾ (التحليل الثقافي: 11).

وعندئذٍ تكون الثقافة المحور الأساسي والمؤثر في تكوين الهوية، فقد: "اختلفت وتنوّعت في مفوماتها ومدلولاتها فقد انتقلت من المستوى المنطقيّ في قوانين الفكر وارتباط المحمول بالموضوع إلى المستوى الأنطولوجي في مفهوم الوجود والميتافيزيقي، ثمّ المستوى الثقافي والاجتماعي الذي تنوّعت فيه أبرز عناصر مكونات الهوية من ثقافة، أو دين، أو عرف، أو أصل⁽²⁾ (الهوية العربية والصراع مع الذات: 21).

ولأنّ النصّ حادثة ثقافية؛ فإنّه يفتح على فضاءات أخرى في الثقافة، والأيدولوجيا، والتأريخ بحيث تُلاحظ هذه المعطيات من دون أن تكون متعالية على بنية الخطاب، بوصفها بنية نصّية مثل اللغة المشكّلة للنصّ؛ إضافةً إلى أنّها نموذج للتمثيل، أو للفجوات النصّية⁽³⁾ (النقد النسقي/ تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي: 20).

وبالثقافة تُؤكّد العلاقة بينها وبين الشاعر والشعر انبثاق لتلك العلاقة، وعلامة عليه، فكلّ كلمة أو عبارة في النسق الشعريّ، تخضع لتجربة ثقافية يحيل إليها، فتتوسّع بمعناها وتتقدّم أو تتأخّر بقيمتها⁽⁴⁾ (ينظر لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: 163). وبذلك يكون الشعر في روحه وغايته دليلاً على ثقافة المجتمع وثقافته.

إذ إنّ ثقافة الشاعر ومرجعياته المعرفية تظهر على سطح العمل الأدبيّ، ومضمونه ومبناه، ودلالته وتأثيره الفنيّ، فالأدب عموماً، والشعر خصوصاً ثمرة من ثمار الثقافة، ونتاج من نتاجاتها المعرفية والعاطفية⁽⁵⁾ (ينظر الأدب العربيّ بين الدلالة والتأريخ: 96) وبهذا يشترك المبدع والمتلقّي بالمرجعيات الثقافية الراسخة في ذهن كلّ منهما، لذا "تأتي قصيدة الشاعر ونتاجه الإبداعيّ ليجسد صورة ثقافته، وعطاءه الفكريّ الذي يستحوذ على ذائقة المتلقّي، ويشترك معه بتنفيذ ثقافيّ يؤسس علاقة ثقافية قوية تربط بينهما، وتقوم على أساس الفهم، والاستيعاب، والتأويل المشترك فيغدو النصّ المنتج بمثابة نقطة ارتكاز والنقاء⁽¹⁾ المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسيّ عصر الطوائف والمرابطين: 6_7).

وبذا يمكننا أن نواكب الرؤية التي تجعل المرجعيات الثقافية مجموع الخلفيات والأبعاد المعرفية والفكرية والثقافية التي ينطوي تحتها الخطاب الأدبيّ، وعادةً ما تكشف لنا هذه الخلفيات والأبعاد، عن أيديولوجيا

وتقافة أمة من الأمم في العالم، أو مجتمع من المجتمعات تكشف عن عاداتهم، لغتهم، تفكيرهم وغير ذلك (2) (المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: 13).

فإذا كانت الثقافة تعني العادات والأعراف التي تنظم المجتمعات والمعارف، والعلوم، والمعتقدات والفنون والآداب والأحداث المكتسبة بالتعلم والدراسة، فإن المرجعيات هي العودة إلى ذلك المخزون الثقافي واستحضاره والإفادة منه.

ولا شك في أن النتاج الأدبي نثراً ونظماً هو نتاج لثقافة الأديب؛ لذا: "إن الأدب ثمرة من ثمرات الثقافة تتبلور فيه طائفة من المشاعر والأفكار، ومهمتنا في دراسة الأدب أن نحلل هذه الآثار الأدبية فنبين فيها العناصر الثقافية التي تعاونت عليها، فنتناول الأدب تناولاً مباشراً فلا نقف عند رصد الظواهر وتسجيلها ولكن نردّها إلى أصولها الأولى في السياقات الثقافية التي كانت تلف العالم الإسلامي التي أثرت في الأساليب والموضوعات (3) (الأدب العربي بين الدلالة والتأريخ: 96).

ثم إن النص الشعري لأي أديب وليد لمرجعيات ثقافية يمتلكها الشاعر، ويشترك مع كثير من الشعراء في الأخذ من تلك المرجعيات الثقافية؛ مما يحدث تشابهاً في العمل الأدبي بين الشعراء. وعندئذ يحدث التأثير والتأثر ف: "هو محاولة بقصد أو غير قصد من الشاعر للإفادة من نتاج غيره أسلوباً وموضوعاً وفكرة وبناءً (4) (أبو العلاء مؤثراً دراسة تحليلية لتأثيره في الشعر الأندلسي: 21).

لذا حتّى كثير من النقاد على أهميّة تضمين النصّ لنصوص سابقة عليه، لتقوية البنية الدلالية، والتمازج بين الحاضر والماضي (5) (ينظر الإيضاح في علوم البلاغة: 312).

- الإجراء:

القرآن الكريم هو المعين الثرّ للفصاحة، والبلاغة، والبيان في التراث العربي، فقد أثر تأثيراً كبيراً في تكوين معاني الشعراء والأدباء والخطباء وألفاظهم وصورهم، وصقلها إذ استلهموا على مرّ القرون كثيراً من الألفاظ والمعاني من آياته وقصصه وحكمه وأحكامه، ووعده وتبشيره ونذيره، ولوّنا أشعارهم بصوره الماديّة الجميلة، وأفكاره العظيمة المتميّزة (1) (ينظر التناصّ الديني في شعر رزيك، ثناء نجاتي عياش: 249).

وكذلك كان الدين الإسلامي عميقاً في نفوس كثير من الشعراء، فغدت أشعارهم صورة لما في نفوسهم من تقوى، وورع، وزهد؛ فالدين اللبنة الرّكيزة الأولى في بناء شخصيّة الإنسان في المجتمع، فوجوده من وجود دينه، وهي خصيصة يتسم بها جميع البشر كلّ بحسب معتقده، وتوظيف النسق الديني لا يقوم على تقديم أنموذج مماثل، أو مشابه لما هو مقدّس، وإنما لتقديم تصوّر حضاري مرتبط بسياق فكريّ معيّن، فهي

ثقافة واعتقاد تؤمن بها أمة، وتقَدِّسه على أنه ذو قيم عُلَى، ومعتقدات دينية خاصة، وتشكّل تلك الأنساق الدينية مجموعة معطيات لأنه نسق يشتمل على صنوف العبادات، والمناسك، والطقوس والشعائر وتجليات للفكرة الدينية⁽²⁾ (ينظر العلم والدين في الإسلام: 3).

وعصر أبي تمام لا يختلف عن القرون التي سبقت، والتي تلتها من حيث التثقف بالقرآن الكريم لمن يريد أن يتثقف به في تلك الحقبة؛ فليس بإمكان أيّ مثقف أن يستغني عن قراءته، وفهمه، وحفظه؛ فهو مصدر التراث الديني، وينبوع العقيدة الإسلامية وإن لم يكن طائفة كبيرة من المثقفين غير متدينين والشعراء هم عليه المجتمع من حيث الثقافة لذا استثمروا في كل مكان وزمان في صبّ معانيهم شعراً، وإثراء بناهم، وإضفاء الحُسن عليها، وتعميق تجاربهم فيها.

إنّ المرجعيّات الثقافيّة لشعر أبي تمام وُسمت بميسم خاصّ ميّزه من غيره من حيث النتاج والأفكار، فإنّ لشعره مرجعيّات ثقافيّة مختلفة عوّل عليها، واستحضرها عند النظم؛ لذا تنوّعت في قصائده.

وقد اغتنى شعر أبي تمام بمرجعيات ثقافية كثيرة؛ ولكننا نقتصر على واحدة منها؛ لشيوعها في شعره بحسب اطلاعنا على ديوانه؛ وهي: المرجعية القرآنية والدينية؛ التي أضفى عليها القرآن الكريم إهابه. وقد تأثر أبو تمام بالقرآن الكريم، فظهرت آثاره واضحة في شعره، وذلك باستخدامه معانيه وصوره⁽¹⁾ (ينظر التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول: 134). ويعجب البهيتي من كثرة تمثله بالقرآن الكريم؛ فيقول: لا أعرف شاعراً من شعراء العربية تأثر بالقرآن الكريم تأثر أبي تمام؛ فإنّ القارئ لا يكاد يمضي في الديوان حتّى يعثر بين خطوة وأخرى بشاعر كأنّما يضع نصب عينيه النقل من القرآن الكريم⁽²⁾ (أبو تمام الطائي (حياته وحياته شعره): 67).

ولذا تنوّعت مرجعيّات أبي تمام من القرآن الكريم، فوظّف كثيراً من ألفاظه في شعره، ومن ذلك ما رجع فيه أبو تمام إلى ألفاظ القرآن الكريم قوله⁽³⁾ (ديوان أبي تمام: 265/3_266):

أَخْرَجْتَهُمْ بَلَّ أَخْرَجْتَهُمْ فِتْنَةً
سَلَبْتَهُمْ مِنْ نَصْرَةٍ وَنَعِيمٍ
نُقُلُوا مِنَ الْمَاءِ النَّمِيرِ وَعَيْشَةٍ
رَغَدٍ إِلَى الْغَسَلِينَ وَالرُّقُومِ

فحين صوّر أبو تمام أعداء ممدوحه، بعد أن هزمهم، وما تبع هزيمتهم من انتقالهم من حال تكبرهم، وتجبرهم، وتنعمهم إلى حال ذلهم وهوانهم، وشقائهم رجع إلى قوله تعالى: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَصْرَةَ النَّعِيمِ}⁽⁴⁾ (سورة المطففين: الآية 24)، وقوله تعالى: {إِنَّ شَجَرَةَ الرُّقُومِ * طَعَامُ الْأَيْمِ}⁽⁵⁾ (سورة الدخان:

الآيتان 43_44) وقوله تعالى: { فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ } (6) (سورة الحاقة: الآيتان 35_36).

ومما رجع فيه إلى بعض الألفاظ القرآنية في قوله (7) (ديوان أبي تمام: 64/1):

تَرْكُؤُ مَوَاعِدُهُ إِذَا وَعَدُ امْرِيًّا أُنْسَاكَ أَحْلَامَ الْكَرَى الْأَصْغَاتِنَا
لَمْ آتِهَا مِنْ أَيِّ وَجْهِ جِئْتُهَا إِلَّا حَسِبْتُ بُيُوتَهَا أَجْدَاتِنَا

فحين استعطف أبو تمام ممدوحه بأن عسر الحال ألم به، ويقومه، أن أهل اليسار بخلوا بما في أيديهم، كانت مرجعيته الثقافية في هذين البيتين بعض الألفاظ القرآنية من قوله تعالى: { قَالُوا أَصْغَاتُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ } (8) (سورة يوسف: الآية 44)، ومن قوله تعالى: { خُشَعَا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ } (9) (سورة القمر: الآية 7) ليؤثر في ممدوحه؛ مما أضفى على بيتيه جمالاً وعمقاً.

ونجد أبا تمام في قوله (1) (ديوان أبي تمام: 425/4):

عِيَاشُ إِنَّكَ لِلنَّيْمِ وَإِنِّي مُدُ صِرْتِ مَوْضِعِ مَطْلَبِي لِلنَّيْمِ
السُّحْتُ أَطِيبُ مِنْ نَوَالِكَ مَطْمَعًا وَالْمُهْلُ وَالْغَسِيلِينَ وَالزُّقُومُ

يرجع إلى قوله تعالى: { كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ } (2) (سورة الدخان: الآية 45)، في هجائه لهذا المهجو، وهو عياش بن لهيعة (3) (ينظر: توضيح المشتبه: 252/3)، إذ يفصل السحت، وشرب المهل على عطاء ذلك المهجو؛ إحياء منه بشدة بخله ولؤمه.

ويهجو موسى بن إبراهيم الرافقي (4) (ينظر تاريخ مدينة دمشق: 388/60)، ويعرض به، بقوله له: إن اللئام قد كثروا، والأحساب استوصلت واختفت، وكذلك العلياء والأداب، وكأن يوم البعث قد جاء فجأة، يقول أبو تمام:

فَاضَ اللَّيْئَامُ وَغَاضَتِ الْأَحْسَابُ وَاجْتَنَّتِ الْعَلِيَاءُ وَالْأَدَابُ
فَكَأَنَّ يَوْمَ الْبَعْثِ فَأَجَاهُمْ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ وَلَا أَسْبَابُ (5) (ديوان أبي تمام: 311/4)

فهو يؤكد هذا المعنى برجوعه إلى ألفاظ قرآنية؛ وهي (تغيض)، (اجتنبت)، (يوم البعث)، (أنساب)، من الآيات الكريمة، { اللَّهُ يَغْلِمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ } (6) (سورة الرعد: الآية 8)، و { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ } (7) (سورة إبراهيم: الآية 26)، { فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ

وَلِكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ⁽⁸⁾ (سورة الروم : الآية 56): **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ** ⁽⁹⁾ (سورة المؤمنون : الآية 101).

ويصوّر أبو تمام سياسة ممدوحه أبي سعيد الثَّغْرِيّ ⁽¹⁰⁾ (ينظر أخبار أبي تمام الصوليّ: 227) في جهاده بوجه الروم في قوله:

فَدَرَأُوهُ وَهُوَ الْقَرِيبُ بَعِيدًا وَرَأُوهُ وَهُوَ الْبَعِيدُ قَرِينًا

فيختزل أبو تمام حالات ممدوحه التي التبست على أعدائه في القرب منهم، والبعد عنهم الذين يرونه على قربه منهم بعيداً لمناعته، ويرونه قريباً منهم لعزمه وهجومه الشَّدِيدِ ببيتٍ واحد رجع فيه إلى قوله تعالى: **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَرَأَاهُ قَرِيبًا** ⁽¹⁰⁾ (سورة المعارج: الآيتان 6_7).

ويعاتب أبو تمام عيَّاش بن لهيعة؛ بقوله ⁽¹⁾ (ديوان أبي تمام: 448/4):

لَيْسَ يَدْرِي إِلَّا اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَيُّ شَيْءٍ تُطَوِّي عَلَيْهِ الصُّدُورُ
وَيَقُولُونَ إِنَّكَ الْمَرْءُ بِالْغَيْبِ بِ مُحَامٍ عَنِ الصَّدِيقِ نَصُورُ
فَإِذَا جِئْتُ زَائِرًا حَجَجْتُ وَجِبَ هَكَ عَنِّي كَأَبَةٍ وَبُسُورُ

لأنه يرى منه خلاف ما يسمع عنه؛ فتكون مرجعيته الآية الكريمة ليعبر عما يجول بخاطره:

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⁽²⁾ (سورة الملك: الآيتان 13_14).

ويمدح محمد بن يوسف في قوله ⁽³⁾ (ديوان أبي تمام: 42/2):

لَبَسْتُ سُوءًا أَقْوَامًا فَكَانُوا كَمَا أَعْنَى النَّيِّمُ بِالصَّعِيدِ

ويجعل أبو تمام علاقة بين الثقافة الفقهيّة العامّة للمجتمع وبين كرم ممدوحه الوافر؛ وبين نفسه حين اضطرّ إلى إتيان غيره؛ فلم يرضه عطاؤهم؛ فاقتنع بالأقلّ منهم كمن يقتنع بالنيّم من لم يجد ماءً، وذلك برجوعه إلى قوله تعالى: **أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** ⁽⁴⁾ (سورة النساء: الآية 43).

ومن الأمور الدنيّة والقرآنيّة التي رجع إليها أبو تمام واستثمرها استثماراً مدروساً ودقيقاً، لكي تؤدّي خدمة معنويّة في النصّ، هي (الخلافة)، و(حفظ الجار) الواردة في قصيدة (الحقّ أبلج...) لما فيها من أحداث تاريخيّة، وأحداث وقعت في عصره، ولا سيّما قصّة الأفشين، وما جرى بينه وبين المعتصم العباسيّ، يقول أبو تمام ⁽⁵⁾ (ديوان أبي تمام: 216 / 2):

فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ
وَاللَّهُ قَدْ أَوْصَى بِحِفْظِ الْجَارِ

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارٍ
مَلِكٌ عَدَا جَارَ الْخِلَافَةِ مِنْكُمْ

إذ نلاحظ أنّ أبا تمام رجع إلى قضية الخلافة منذ نشأة دولة الإسلام، وما جرى بسببها من حروب وأفكار مختلفة في ما بينها على مرّ تأريخ الإسلام؛ لذا لجأ أبو تمام إلى إيجاد مسوغ شرعي للمعتصم، والمسوغ الشرعي هو أنه جار الخلافة، والله قد أوصاه بحفظ جاره، فقد قال أبو تمام هذه القصيدة لإضفاء القدسيّة على عمل المعتصم، فرجع إلى قوله تعالى ﴿وَبِأَنبَاءِ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾⁽¹⁾ (سورة النساء: الآية 36).

ثم أكد أبو تمام مفهوم النعمة، ووظف معناه في مرجعيته من أجل تعميقه وتعميمه، يقول:

فَكَأَنَّهَا فِي غُرْبَةٍ وَإِسَارٍ
كَتَضَاؤِلِ الْحَسَنَاءِ فِي الْأَطْمَارِ

كَمْ نِعْمَةٍ لِلَّهِ كَانَتْ عِنْدَهُ
كُسِبَتْ سَبَائِبَ لَوْمِهِ فَتَضَاءَلَتْ

وهذان البيتان رجع فيهما إلى قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾⁽²⁾ (سورة النحل: الآية 83) ليبين أنّ الأفشين كان ذا نعم كثيرة، ولكنه كان مستأثراً بها لنفسه، لأنّه ينكر كونها عنده، ويجعلها بلومه تتضاءل كالفتاة الحسنة التي يخفي حسنّها وجمالها ارتداؤها الأظمار (الملابس البالية)، ثم يرجع بالحديث عن المنافقين الذين ارادوا من وراء عملهم شقّ عصا المسلمين، وتفريق كلمتهم، حتّى نزل الوحي مبلّغاً عن ربّ العزة ما يخفي المنافقون في أنفسهم من وراء هذا العمل، ونحن بذلك نتبين النّصّ الغائب، إذ إنّ نعرف معنى المرجعيّة الثقافيّة فيه أنّه تأكيد لصورة المنافق، واستغراق فيها، ومنه نفهم أفعال الأفشين التي مارسها من أجل خدمة الدولة والخليفة العبّاسي كانت بمثابة عمل حقّ في ظاهره، ولكنه حقّ أريد به باطل، ثم شبه عمل المعتصم برده على عمل الأفشين بعمل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) برده على المنافقين، إذ يقول أبو تمام في ردّ الخليفة على أعمال الأفشين⁽³⁾ (ديوان أبي تمام: 4 / 111):

عَنْ مُسْتَكِنِ الْكُفْرِ وَالْإِصْرَارِ
وَالْحَقُّ مِنْهُ قَانِي الْأَظْفَارِ

حَتَّىٰ إِذَا مَا اللَّهُ شَقَّ ضَمِيرَهُ
وَنَحَا لِهَذَا الدِّينِ شَفْرَتَهُ إِنْتَنَىٰ

فهذان البيتان رجع فيهما إلى ما نزل الوحي في الكشف عمّا بسريرة الأنفس المتربّصة بالإسلام ووحدة المسلمين؛ فإنّ مرجعيتهما قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾⁽⁴⁾ (سورة الأنبياء: الآية 18)، فهذه الآية الكريمة هي مرجعيّة لقوله: "والحقّ منه قاني

الأظفار" التي تثير في الذهن صورة "فيدمغه"، غير أننا نفهمها من حيث المعنى، وليس من حيث اللفظ، فما فعله المعتصم بالأفشين كأنه غضب من الله.

ومما رجع فيه أبو تمام قصّة السامريّ والعجل الذي صنعه لقومه، وكذلك قصّة ثمود وهما من قصص القرآن الكريم؛ من أجل أن يحرض المعتصم على استئصال شأفة الأفشين والقضاء على قومه، إذ يقول:

يَا قَابِضًا يَدِ آلِ كَأُوسٍ عَادِلًا	أَتْبِعْ يَمِينًا مِنْهُمْ بِيَسَارٍ
أَلْحِقْ جَبِينًا دَامِيًا رَمَلْتَهُ	بِقَفَا وَصَدْرًا خَائِنًا بِصِدَارٍ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ إِنَّمَا تُفْقِنُهُمْ	فِي بَعْضِ مَا حَفَرُوا مِنَ الْأَبَارِ
لَوْ لَمْ يَكِدْ لِلسَّامِرِيِّ قَبِيلُهُ	مَا خَارَ عِجْلُهُمْ بِغَيْرِ خَوَارٍ
وَتَمُودٌ لَوْ لَمْ يُدْهِنُوا فِي رَبِّهِمْ	لَمْ تَدَمْ نَاقَتُهُ بِسَيْفِ قُدَارٍ

ففي هذا النصّ تقدّم المرجعية القرآنية خدمةً للاحتجاج ، ففي البيت الثالث نجده يطمئن المعتصم أنّ عمله في الأفشين وفي قومه عمل شرعيّ، فأبو تمام بتحريضه للمعتصم يزيّن له هذا المسوّغ الشرعيّ، فكما أنّ السامريّ ما كان له أن يصنع العجل الذي عبده قوم موسى لو لم تكن القبيلة توافقه على ذلك، بل تشجّعه فاستحقوا العقاب بالنّبيّ والتشريد، فالمرجعية جاءت هنا للمحااجة، وكذلك ثمود مع صالح(عليه السلام) ، فقد طلبوا منه آيةً بيّنةً يثبت بها نبوته، فقال لهم: هذه النّاقة توافقه على ذلك، بل يوم، وحذّرهم من الاقتراب منها، أو الفتك بها، لكنهم أجمعوا أمرهم على التّربص بها، مستخدمين شتى الوسائل بما في ذلك إغراء النّساء، إلى أن جرى لهم ذلك على يد قدار بن سالف. والملخص أنّ ما شجّع قدار على عقر النّاقة قومّه، ولو لم يشجّعوه على ذلك لما فعله، فاستحقوا العذاب.

وبعد هذ العرض اليسير لنماذج متناثرة من ديوان أبي تمام نقول قبل التّحليل، إنّ القرآن الكريم والدين الإسلاميّ يفرضان حضورهما على العقل الجمعيّ الإسلاميّ، إذ لم يكن شيئاً طارئاً أو هامشياً، بل هو قوّة لها حضور بالفعل يوازي وجود الإنسان في هذه الحياة، ويرتبط الدين بالبنية الثقافيّة، والنّفسيّة، والاجتماعيّة⁽¹⁾(تأويل الثقافات: 318)، فهما باجتماعهما القرآن والدين مرجعية ثقافيةً اتخذت أشكالاً متنوّعة في شعر أبي تمام، فقد وظّف الشّاعر الدلالات النّصيّة التي تتضمّن دلالة جديدة يجسّد فيها الشّاعر رؤيته تجاه الحياة التي عاشها، فقد أعاد تشكيل بناء تجربته الشعريّة؛ لتكوّن تمازجاً ما بين الموروث الدينيّ المتخفيّ تحت عباءة احتياجه إلى بيان وجوده الشّخصيّ وإثباته، وبين الموروث الدينيّ الظاهر فوق السّطح

من حيث نظام الخلافة التي يريدها أن تكون موافقةً للقرآن الكريم والدين الإسلاميّ النقيّ، وليس ما شابهه من أخطاء وانحرافات عن السبيل الأقوم، وذلك بإعادة طرح الأمر المقدّس بالألفاظ القرآنيّة، والأحكام الشرعيّة والفقهية على وفق رؤيته الخاصّة؛ المؤمن بها؛ التي تمنح نصّه الشعريّ رؤية جديدة.

إذ إنّ الشاعر يحاول تجسيد فكرة التماهي التي عبّر عنها الفكر الدينيّ، وما تضمّنته من آيات قرآنيّة مثّلت مرجعاً ثقافياً ضارباً في أعماق نفسه، متنوّع الدلالات والقيم، على طريق فكرة النسق الدينيّ الذي يمثّل الرحمة والرأفة بالناس، ولا سيّما في استلهام الشاعر.

وكذلك وظّف أبو تمام محتوى هذه المرجعيّة الثقافيّة بتصويره عمق الصراع بين الذات والآخر، لما يحمله مثل هذا النسق الثقافيّ من مردودات نفسيّة مشتركة تمكّن الشاعر من تفرغ مشاعره، وإثارة قارئه، لأنّ النصّ الدينيّ في مجمله بنية أساسية في ثقافة القارئ العربيّ، ومن ثمّ يستطيع من خلال التناصّ الدينيّ أن يقدّم رسالته بصورة أفضل، لأنّه ينطلق من قاعدة مشتركة بينه وبين القارئ⁽¹⁾ (معجم الموتيّفات المركزية في شعر محمود درويش: 22)، فباستتقاق محتوى القصص الدينيّة يجسّد الشاعر معاناته في زمنه الذي تبدّلت فيه القيم، وأصبح للباطل سطوة، فبحث عن أصحاب المواقف الطيبة، ليمدحهم، فينصروا أهل الحقّ، فلا بدّ في هدى هذا أن يشعر القارئ بالأمل، ويتعاطف مع الشاعر، ممّا يفتح الباب واسعاً لقصديّة الخطاب المنضوي تحت سياق ثقافيّ قارّ يعمل على منح النصّ فاعليّة وحيويّة قادرة على الخلود لنصوص كهذه.

وفي هذه النصوص التي اخترناها يبدو لنا أنّ المرجعيّة القرآنيّة والدينيّة تحمل دلالات وإشارات ثقافية أخرى؛ لأنّها بنية قارة في الفكر الدينيّ المجتمعيّ، ففي الثقافة الدينيّة المجتمعيّة تشكّل نسقاً ثقافياً شديداً الصلة بتراث ذلك الدين، والشاعر يستلهم قصصاً من هذا النسق الدينيّ، ويحوّل دلالاتها بإحساسه الشعريّ، ويضفي عليها روحها الدينيّ، ليجعلها تحاكي واقعاً يومياً يعيشه، ويجسّد كلّ ما فيه من ذاتيّة، إذ إنّ نصّ الشاعر هنا يجسّد طريقة مغايرة لما هو في نسق الذاكرة الجمعيّ، فهو في هذا النصّ من يحدّ المجتمع، فالقرآن الكريم في الذاكرة الجمعيّة للمجتمع الرّمز الأوّل له، ففي إشارات واضحات إلى تفاصيل قصة النبيّ صالح (عليه السلام) مع قومه، وما فعلوه به من أذى وتعذّب، وتعذّب، وقاتل، وغير ذلك من صدّ عن أمر الله (عزّ وجلّ)، استثمر الشاعر النسق الدينيّ في فرض رؤيته، فإذا كانت الأقوام الأخرى كما وردت قصصهم في القرآن الكريم هم من لم يؤمنوا بالأنبياء، وحاربوهم، وقتلوهم وعدّبوهم والأنبياء يبلّغون أقوامهم من دون أيّ توان، ويتحمّلون كلّ أذى؛ فإنّ نصّ الشاعر يجسّد ما يهتمّ به، وهو أمر تبليغ الحقيقة الذي يريد به أن يشارك الناس همّه هذا. فكلّ ما يعانیه، ويتعدّب بسببه، هي الحقيقة المرّة التي عاناها الأنبياء

بسبب أقوامهم، فتقافة التبليغ يعبر عنها الشاعر عن معاناة لا تتفكك ترافقه في كل وقت، وفي كل مكان يحل فيه، فالقضايا التي يريد طرحها الشاعر هي معاناة تقصّ مضجعه، فيستثمر نسقاً دينياً له ارتباطات ترافق بني البشر منذ الخليقة، وهي العزوف عن الحق، والصدّ عنه.

الخاتمة ونتائج البحث:

بعد استعراضنا لما ورد من مرجعيّات ثقافيّة دينيّة في شعر أبي تمام توصلت إلى ما يأتي:

1. كشف البحث أنّ مرجعيّة أبي تمام جاءت لتسويغ أمورٍ ما؛ لأنها أدت أضراراً عدّة، منها الشرعيّة . وهذا أهمّها . ومنها فعل المعتصم .

2. كشف البحث أنّ أبا تمام في اقتباسه تلك المرجعيّة القرآنيّة كان قاصداً لها .

3. جاءت المرجعيّة القرآنيّة والدينيّة؛ لتشكّل الدلالة العامّة في جلّ نصوصه، بما يشبه العلامات الرّمزيّة التي تشكّل الرّسالة، فأبو تمام تجاوز الاستشهاد، أو الاقتباس، أو غيرهما، وانفصل عمّا يمكن أن يُسمّى الأقنعة والمرايا .

4. كشف البحث أنّ لغة أبي تمام متأثرة تأثراً كبيراً بلغة القرآن الكريم، وكذلك التصوير عنده، فأبو تمام يتشرب الكثير من تصوير القرآن الكريم في نصوصه؛ فضلاً عن تشكّل الملكة اللغويّة والمعجم الشعريّ لديه .

المصادر والمراجع

- أولاً - الكتب المطبوعة

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. الأدب العربيّ بين الدلالة والتاريخ، عدنان عبيد العليّ، ط1، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، 2000م.
2. أخبار أبي تمام، الصوليّ، تحقيق خليل محمود عساكر وآخرون، ط1، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، 1937 م .
3. أبو تمام الطائيّ (حياته وحياته شعره)، نجيب محمد البهيتي، ط1، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1937 م .
4. أبو العلاء مؤثراً (دراسة تحليليّة لتأثيره في الشعر الأندلسيّ)، عليّ كاظم محمد عليّ، ط1، دار الفرات للثقافة والإعلام، بابل - العراق، 2010 م .
5. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ط4، دار إحياء العلوم، بيروت، 1998م.
6. تأريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد العموري، ط1، دار الفكر، بيروت، 2009 .
7. التحليل الثقافيّ، بيتزل بيرجر وآخرون، ترجمة فاروق أحمد عمر وآخرون مراجعة وتقديم أحمد أبو زيد، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 2009 .

8. تأويل الثقافات ، كليفورد غيرتس ، ترجمة محمد بدوي ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، 2009م .
9. توضيح المشتبه ، ابن ناصر الدين ، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1993م .
10. التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، مجاهد مصطفى بهجت ، ط1 ، منشورات وزارة الأوقاف الدينية ، بغداد ، 1982م .
11. ديوان أبي تمام ، تحقيق د . محمد علي غناوي ، ط1 ، دار آراء للطباعة والنشر ، بغداد ، 2020 .
12. صحاح العربية وتاج اللغة ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ط1 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1956م .
13. العلم والدين في الإسلام ، عبد العال العبدوني ، ط1 ، الدار البيضاء - المغرب ، 2007م .
14. العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق د . مهدي المخزومي ، ود . إبراهيم السامرائي ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1980 - 1988م .
15. الكتاب ، سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط1 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1966م .
16. لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة ، د . عبد الفتاح أحمد يوسف ، ط1 ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، 2010م .
17. المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ، حسين مجيد رستم ، منشورات جامعة البصرة - العراق ، 2008م .
18. معجم مصطلحات الأدب (إنجليزي - فرنسي - عربي) ، مجدي وهبة ، مطبوعات مكتبة لبنان ، بيروت ، بلا تاريخ .
19. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، د . سعيد علوش ، ط1 ، دار الكتب اللبنانية ، بيروت ، 1985م .
20. معجم الموتيقات المركزية في شعر محمود درويش ، حسين حمزة ، ط1 ، مجمع اللغة العربية ، حيفا ، 2012م .
21. النقد النسقي (تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي ، يوسف عليما ، ط1 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2009م .
22. الهوية العربية والصراع مع الذات ، أشرف حافظ ، ط1 ، دار كنوز المعرفة للطبع والنشر ، عمان - الأردن ، 1433هـ - 2012م .

— المجلات والدوريات :

- 1 — التناص الديني في شعر رزّيك، ثناء نجاتي عياش، مجلة الجامعة الأردنية لدراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، م23، العدد2، 2005م .